في هذا المجال يحدثنا كتاب "إسلامية المعرفة" فيقول : " هذا التطابق المنطقي بين العقل والحقائق المطلقة والواقعية ، وما يأتي به الوحي ، هو أخطر مبدأ عرفته نظرية المعرفة ، هذا التطابق قائم على ثلاثة مبادئ ترتكز عليها المعرفة الإسلامية كلها :

الأول : أن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تعارض بين الحقائق الواقعية ، وما يأتي به الوحي ، فكل ما يقرره الوحي لا بد أن يكون منسجماً مع الواقع موافقاً له ...

الثاني : أن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تعارض أو خلاف أو تفاوت مطلق بين العقل والوحي ...

الثالث : أن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أن باب النظر والبحث في طبيعة الخلق في أي جزئية منه لا يمكن أن تغلق ، وذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة ، فمهما عرفنا منها ، ومهما تعمقنا في هذه المعرفة فلا يزال هناك المزيد منها ليكتشف ويسخر ... " (١)

ومن هنا كانت عناية القرآن بتوجيه العقل بالتأمل والتدبير في كلماته الربانية الكريمة ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص : ٢٩ ، مكية) .

---

١ - إسلامية المعرفة ص (٩١) وما بعدها ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٨٦ م

المصدر الأعلى للمعرفة

الآن نستطيع القول : بأن المعرفة العليا تتمثل فيما يأتي :-

أولاً : العقل : تلك الملكة الربانية التى نقدر بها على الإدراك والتأمل والتفكير وغير ذلك ، من العمليات العقلية الأخري ، وكذلك القواعد العقلية المسلمة ، كقانون التناقض والتضاد وبطلان الدور والتسلسل ... وهكذا ...

ثانياً : البصيرة : وذلك فيما تتمتع به من إلهام ، ورؤيا صادقة ، وكشف رباني للصالحين من عباد الله .

إن المعرفة التى نحصل عليها من خلال العقل ناقصة لانها من حيث المبدأ وبالجملة . وليس فيها التفصيل المطلوب الذي يحقق المعرفة الكاملة .

وأما المعرفة المستفادة من البصيرة فهي تستفاد بالتجربة الشخصية ، ولا يستطيعها كل إنسان بل صفوة الصفوة من الناس .

من هنا اقتضت حكمة الله تعالي – العلي القدير ، العليم الخبير ، اللطيف الرحيم – أن يرسل للناس أنبياء ورسل هداة ومعلمين ، مبشرين ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٦٣ – ١٦٥) .

إن هذا الوحي الإلهي ، قد جاء بالمعرفة العليا الكاملة والواضحة بما يحقق الغاية القصوي منها . وبهذا يمكن للإنسان القيام بمسئوليته ورسالته في الحياة حسب جهده وطاقته وظروف حياته .

إن هذا الوحي الإلهي يؤكد – بما لا يدع مجالاً للشك – أن الله – تبارك وتعالي – هو المصدر الأعلى للمعرفة ، أو هو مصدر المصادر ، الذي ليس بعده مصدر آخر بلغ حد الكمال ، فالكمال لله وحده .

تلك حقيقة مؤكدة ، لا ينقص من قدرها إنكار منكر ، أو جحود معاند ومكابر ، كيف : وهو الخلاق العليم ، العلى الحكيم ، وعلى كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام : ٥٩ ، مكية) والنتيجة : أن الخلق من الله ، والعلم من الله ﴿ وَاتَّقُوا اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٢) .

ضوابط ومحاذير

إن المعرفة في التصور الإسلامي لا تقبل هكذا دون قيد أو شرط بل تحتاج إلي ضوابط تضبطها لكي يقبلها العقل ، ويطمئن إليها القلب ، وتستريح إليها النفس ، خاصة إذا كانت تلك المعرفة متعلقة بالحقيقة الأزلية المطلقة ، فتصبح عقيدة . تتعقد في القلب ، وترسخ فيه بيقين ، لأن العقيدة لا تبني إلا على يقين . وتلك هي الضوابط والمحاذير .

أولاً الضوابط : ومن أهمها ما يلي :-

١ – التفكير الهادئ .

إن أولي الخطوات إلي اليقين ، تبدأ بالتفكير الهادئ الرصين . ومحاولة إبعاد شتي المؤثرات الداخلية والخارجية ، وفي هذا قوله تعالي : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سورة سبأ : ٤٦ ، مكية) .

٢ – البرهان :

هذا التفكير الهادئ يؤدي إلي نتيجة طيبة ، تلك النتيجة لكي تكون مؤكدة بيقين فإنها تحتاج إلي دليل .

والقرآن الكريم يستعمل كلمة " البرهان " في مجال العقيدة لأن البرهان سيد الأدلة ، وأقوي حجة من كل دليل " .

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة البقرة : ١١١ ، مدنية) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (سورة النساء : ١٧٤ ، مدنية) .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٤ ، مكية) .

﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة النمل : ٦٤ ، مكية) .

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٧ ، مكية) .

نخلص من هذه الآيات وأمثالها إلي أمرين :-

الأمر الأول : أن الدعوى لا تقبل إلا بدليل ، ولا ترفض – كذلك إلا بدليل

الأمر الثاني : أن العقيدة بصفة خاصة لا تبني إلا على يقين – كما قلنا – ومن ثم لابد أن تؤكد بالبرهان ، الذي هو سيد الأدلة .

إن استعمال القرآن للبرهان يؤكد ذلك فهو " أسمي صور الاستدلال ، لأنه يقوم على أساس من مقدمات يقينية ، وينتهي تبعاً لذلك إلي نتائج يقينية ، وأوضح

صوره البرهنة الرياضية " أما الدليل " فقد يكون مجرد أمارة أو ظاهرة معينة ، أو شهادة شاهد ، أو ضرباً من الاستدلال المنطقي " (١) .

٢ – العلم :

وإذا كان البرهان سيد الأدلة ، والأقوي حجة ، فإنه لا يكون إلا بعلم ، ولا يتحقق عن جهل من هنا كانت عناية الإسلام بالعلم ، وفرض تعلمه على كل مسلم ومسلمة ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ (سورة الزمر : ٩ ، مكية) .

﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ (سورة آل عمران : ١٨ ، مدنية) .

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ (سورة فاطر : ٢٨ ، مكية) .

والعلم في الإسلام مطلق في كل المجالات ، لا تحده حدوده طالما كان علماً نافعاً للإنسان والحياة ، وفي هذا دفع قوى للعقل أن يجد ويجتهد فيبتكر من العلوم ما يشاء ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ .

وإذا كان العلم يشرف موضعه فإن أشرف العلوم هي العلوم الدينية ، وأعظمها قدراً وشرفاً على الإطلاق : علم العقيدة ، حيث معرفة الله تعالي ، وما يليق بذاته القدسية من صفات الجلال والكمال ... الخ .. وكذلك الدفاع عن هذه العقيدة والتصدي للهجمات الشرسة من قبل الماديين الملحدين ومن على شاكلتهم من المتمردين .

---

١ – المعجم الفلسفي ص (٣٣ – ٨٤) .

من هنا كانت العلوم عندنا نوعين : نوع هو عين ، على كل فرد من المسلمين وذلك هو العلم بالحلال والحرام بالقدر الذي يمكن المسلم من معرفة عقيدته ، وعباداته ومعاملاته وأخلاقه ... الخ .

أما النوع الآخر فهو العلم بدقائق العلوم على مستوي التخصص وذلك فرض كفاية . والأمة في مجموعها مكلفة بأن تخصص طائفة من أبنائها لكل فرع من فروع العلم الذي تحتاج إليه في حياتها ، كالطب والزراعة والهندسة والكيمياء .. والتشريح ... الخ .

وإذا ما تحقق لأمة الإسلام الوفاء بهذه العلوم فإنها – بلا شك تقيم حضارة إنسانية كريمة تقوم على العلوم والعمل .

من هنا يتبين مدي حرص الإسلام على العلوم ، لأنه لا إسلام بغير علم والعلم عندنا دين منطلقه الإيمان بالله ، وغايته القصوى معرفة الله ورضاه .

٤ – ومن ضوابط المعرفة موافقتها للمعقول والمنقول : أي موافقة العقل الصريح للنص الشرعي الصحيح ، ليس في نتائجها فحسب ، ولكن في وسائلها أيضاً حيث أن الغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام .وسيأتي بيان وتوضيح لهذا الموضوع في حديثنا عن " التطابق بين الوحي والعقل " إن شاء الله .

٥ – ومن الضوابط أيضاً : التطابق بين الحقائق العلمية والحقائق الكونية ، والمعتقدات الإيمانية ، لأن المصدر الأول لكل هذه الحقائق واحد ، هو الله تعالي ، ومن ثم لا يعقل ولا يقبل التعارض بينها .

تلك هي أهم الضوابط التى نراها ضمانات حتمية من أجل الوصول إلي معرفة يقينية .

ثانياً : المحاذير :

وعلي ضوء هذه الضوابط تتضح المحاذير التى ينبغي الابتعاد عنها ، حتي لا نقع في خلط أو تشويش ، أو تشويه ، ومن أهم هذه المحاذير ما يلي : -

١ – التحرر من سيطرة الأهواء ، الأغراض :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى • وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى • أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى • تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى • إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم : ١٩ – ٢٣) .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص : ٥٠ ، مكية) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (الجاثية : ٢٣ ، مكية) .

٢ – التحرر من الجهل في الاعتقاد :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (الحج : ٣ ، مدنية .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج : ٨ ، مدنية .

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (الأنعام : ١٤٨ ، مكية)

٣ – التحرر من المعتقدات السيئة الموروثة ، والتقاليد المذمومة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠ ، مدنية) .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ {٢٣} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٣ - ٢٤ ، مكية) .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الأعراف : ٧٠ ، مكية) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ {٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} ٥٢ {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء : ٥١ - ٥٣ ، مكية) .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٨ ، مكية) .

٤ - التحرر من الظنون والأوهام :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (يونس : ٣٦ ، مكية) .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم : ٢٨ ، مكية) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام : ١٤٨ ، مكية) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (الجاثية : ٣٢ ، مكية)

٥ – التحرر من العناد والمكابرة :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٣٤ ، مدنية) .

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة : ٣٤ ، مدنية) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا • اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (فاطر : ٤٢ – ٤٣ ، مكية) .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (هود : ٥٩ ، مكية) .

﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (المدثر : ١٦ ، مكية) .

٦ – عدم كتمان العلم :

فمن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة ، يقول الحق تبارك وتعالى :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦ ، مدنية) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ • إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ١٥٩ – ١٦٠ ، مدنية) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٤ ، مدنية) .

٧ – التحرر من سيطرة المتكبرين الجبارين :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (إبراهيم : ٢١ ، مكية).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ : ٣١ ، مكية) .

٨ – التحرر من سيطرة الحكام الجاحدين الذين كفروا بالله ورسوله ، ويصدون عن سبيله .... فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٢٣ ، مكية) .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٦٧ – ٦٨ ، مدنية) .

٩ – التحرر من سيطرة الوساوس الشيطانية :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٧، مدنية) .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (إبراهيم : ٢٢ ، مكية) .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ (المجادلة : ١٩ ، مدنية) .

١٠ – التحرر من سيطرة الوالدين الذين يصدون عن سبيل الله . مع حسن معاملتها .

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (لقمان : ١٥ ، مدنية) .

تلك هي ضوابط المعرفة ، وهذه محاذيرها ، وهي ترعي المعرفة من كل خلط أو تشويش أو تشويه حتى تحصلها نقية خالصة من كل سوء . وقد استقيناها من الوحي المعصوم ، فإنه أصدق الحديث ، ومن أصدق من الله حديثا ؟ ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (فصلت : ٤٢ ، مكية) .

بعد هذا ، ترى ما هي الخصائص التي تتميز بها تلك المعرفة ؟

خصائص المعرفة

إن المعرفة بالله تعالي معرفة من نوع خاص بل هي أخص المعارف على الإطلاق ، ولهذا فإنها تتميز بميزات خاصة ، وخصائص معينة لا تليق بغيرها من المعارف ، وعلى ضوء ما توصلنا إليه من نتائج خلال رحلة البحث نستطيع – بتوفيق الله تعالي – أن نقف على تلك الخصائص ، وأهمها – فيما نري – ما يلي : –

أولاً : اليقين المطلق :

إن اليقين المطلق سمة تلك المعرفة بكل الدلائل والبراهين التى لا ينهض على نقضها دليل محترم ، فإنها ببراهين حسية ، وعقلية ، ووجدانية . ولغوية ... الخ .. وإن كانت في الواقع لا تحتاج إلي دليل فوق كل دليل ، فهي منطق الفطرة في نفس كل فرد ، وهي النور المطلق الذي يضئ الكون كله بل الملك والملكوت " نور على نور " .

بيد أن بعض الأدمغة – لسبب أو لآخر – غشي على أبصارهم وبصائرها فلم تقو على الرؤية الصحيحة بنور العقل أو القلب ، ولمثل هؤلاء يحتاج المقام إلي دليل .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (لقمان:١١ ، مدنية)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف : ٤ ، مكية) .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور : ٣٥ ، مكية)

هذه بعض آيات التحدي المطلق ، بدلالة الخلق على الخالق ، وأن الخالق هو الله . كما أن من أسمائه الحسنى " الخالق " الذي لا يقدر على الخلق سواه .

وفي هذه الآيات إشارات إلي أقوي الأدلة في الإقناع والإلزام وإفحام الخصم .

ففيها : التحدي بالمشاهدة ، مما يعني : الزام الواقع المحسوس .
وفيها : كذلك – تحدي الخصم بأن يثبت دعواه بالواقع أيضاً .
وفيها : السببية التى يزعم الماديون أنهم مكتشفوا قانونها..وهكذا...

وأخيراً : نقول : إن أحداً من المنكرين – مهما كان شأنه في الفكر والتنظير – لم يستطع حتى الآن أن يقدم دليلاً واحداً محترماً يقبله العقلاء فضلاً عن أولي الألباب . إن هذا لم يكن ولن يكون .

وأما ما يزعمه هؤلاء باسم العقل فهو غثاء ، وهراء والعقل الصحيح منه براء . فلا قيمة له في رحاب العلم ، ومحافل العلماء .

ثانياً : التجرد المطلق :

هذه هي الخصيصة الثانية ، ويعني أن هذه المعرفة مجردة تجريداً مطلقاً عن المادة لأن المادة محسوسة ، ومتمثلة في الواقع ، ثم هي مخلوقة لله ، مسخرة له ، والضرورة العقلية تقتضي المغايرة بين السبب والمسبب ، والمادة هي المسبب بدليل ما يلحقها من تغيرات : وجوداً . وعدماً ، حركة وسكوناً ، اجتماعاً وافتراقاً ، ولا يعقل أن تكون تلك التغيرات من ذاتها وبذاتها فهذا باطل على نحو ما أوضحنا سابقاً في موضعه .

ثالثاً : الحقيقة الأزلية المطلقة :

هذه الخصيصة الثالثة : إنها الحقيقة الأزلية الخالدة بل حقيقة الحقائق بإطلاق . التى يستمد منها كل موجود وجوده ، فلا تحدها حدود ، ولا تقف دونها سدود ، فكل الحقائق مستمدة منها بطريق مباشر أو غير مباشر ، غير أنها في النهاية ترجع إليها ، ومن ثم لا يمكن أن تتعارض معها ، أو تختلف عنها ، فإن تعرضت سقطت من الحساب ولا ترقي إلي مستوي الحقيقة .

رابعاً : الوحدانية المطلقة :

هذه هي الخصيصة الرابعة : إنها الوحدانية المطلقة . وذلك أن الحقيقة المطلقة واحدة على التحقيق ، وما عداها ، فإنه يتصف بالإطلاق تجوزاً لأنه يستمد إطلاقه من الله ، أو من العقل الذي هو هبة من الله ، ويعمل بقدرة الله . إن هذه الوحدانية تقتضي بالضرورة ، الوحدة في الذات والصفات والأفعال . وعدم المماثلة أو المشابهة لا شيء آخر ، لأن كل شيء آخر إنما يستمد وجوده منه سبحانه وتعالي ، والضرورة تقتضي المغايرة بين السبب والمسبب كما قلنا .

خامساً : أنها مقتضى الفطرة :

بل أهم مقوماتها الذاتية ، ولوازمها النفسية ، ومن هنا كانت الفطرة أهم الدوافع في البحث عنها ، والتعرف عليها ، فإذا ما حصل عليها تلاقت الفطرتان ، فطرة الله في الإيمان ، وفطرته في خلق الإنسان .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٣٠ ، مكية)

سادساً : أنها مقتضى العقل :

إذ العقل بطبيعته ملكة البحث والاستقصاء ، ومن ثم لا يمل ولا يكل ولا يقر له قرار ، وراء البحث عن هذه التساؤلات : من أين ؟ وإلي أين ، وكيف ؟ ولماذا ؟ وقد تحقق له ما أراد ، ولكن من حيث المبدأ وبالجملة . وما يزال يطمع في التفصيل – فكانت محاولات وجولات ، أخفق فيها جميعها عبر التاريخ ، فكانت معرفته ناقصة ، ولا ترقي إلي الكمال المنشود ، ومن هنا تجلت قدرة الله تعالي ، بالوحي فجاءت المعرفة العليا تامة فلا ينقص منها ، وكاملة فلا يزاد عليها ، هنا اطمئن العقل ، فقد جاء الوحي الإلهي الصحيح بما يوافق العقل الصريح ، على نحو ما بيناه في موضعه من هذا البحث .

نتائج وآثار

إن الآثار المستفادة من معرفة الله – تبارك وتعالي – في وحيه الكريم – قرآناً وسنة – تنعكس على الإنسان في مجالين هما : –

المجال الأول : تحصيل المعرفة :

ذلك أن مهمة الوحي الإلهي ، هداية البشرية إلي الله رب العالمين ومن هنا اقتضت حكمته تعالي أن يهدي للتي هي أقوم في شتي المجالات : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء : ٩ ، مكية) .

ومن هذا المنطلق فإنه يهدي الإنسان إلي التى هي أقوم في عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وأخلاقه وسلوكه .

ومن هذا المنطلق – أيضاً – يهدي الإنسان للتي هي أقوم في بناء ذاته ، وتدعيم كيان المجتمع في بنائه .

ومن هذا المنطلق – كذلك – يهدي للتي هي أقوم في بناء مجتمع إنساني عالمي يقوم على الوحدة الإنسانية ، ويحوطه الأمن والأمان ، والطمأنينة والسلام

ومن هذا المنطلق يهدي للتي هي أقوم في مجال هذا الكون الرحب . حيث يصول ويجول في مختلف جنباته . وشتي مجالاته .

ومن هنا حينما يتحدث القرآن عن الطبيعة ومظاهرها فإنه يحقق أمرين :

أولهما : التعرف على مظاهر القدرة الإلهية ، وشواهد العظمة الربانية في هذا الوجود .

ثانيهما : دفع العقل إلي البحث والتنقيب فيما وراء هذه المظاهر الطبيعية فيستنبط ما يستطيع من المعارف والعلوم .

مثلاً : حديث القرآن عن الإنسان ومراحل تكوينه يدفع إلي علم الأجنة ، وكذلك الحديث عن الكائنات الحية يدفع إلي علم الأحياء .

وكذلك توجيه النظر إلي الأمم الغابرة يدفع إلي علم التاريخ مرآة الأمم ووعاء العلوم .

وكذلك حديث القرآن عن النبات يدفع إلي علوم الزراعة والنبات وكذلك حديث القرآن عن الفكر وضوابطه وأهدافه يدفع إلي الفلسفة والبحث عن حقائق الأشياء بعللها بهدف التعرف على القدرة الخلاقة المبدعة ... وهكذا ..وهكذا .

ليس معني هذا أن القرآن مؤلف من علم من العلوم ، فهو ليس كتاباً في الطب ولا في الطبيعة والكيمياء ، والنبات ... الخ .

المجال الثاني : توظيف العلوم وأسلمه المعارف :

ونعني بذلك توظيف المعارف والعلوم بحسب طبيعتها لتحقيق الغاية منها فتكون نافعة ومفيدة للإنسان والحياة . وليس ذلك فقط وإنما توظيف بحسب ارتباط مظاهرها ونتائجها بقدرة الله ، وخدمة العقيدة الربانية السليمة .

إن هذا هو ما تهدف إليه إسلامية المعرفة ، أو أسلمة العلوم ، وهنا قد يستشكل الأمر ويلتبس على بعض الناس ، وخاصة في مجال العلوم الطبيعية ، فيعني بذلك أن تكون هناك كيمياء إسلامية ، وبيولوجيا إسلامية ، وفسيولوجيا إسلامية ... وهكذا ...

علماً بأنه من المعلوم : أن هذه العلوم وغيرها من العلوم الطبيعية لا وطن لها ، ولا جنس لها ، ولا دين لها ، وإنما هي ملك للبشرية جميعاً ، وكل أمة تضيف إليها بالقدر الذي تستطيع من نظريات وأبحاث .

ولكنا نقول : إن مظاهر الطبيعة في شتي مجالاتها إنما هي دلائل شاهدة على قدرة الخالق سبحانه وتعالي : وإذا كان هذا حالها في ظاهر أمرها فإنها في مخبرها وما تحويه باطنها لأدل على ذلك بكثير وكثير .. فإن عالم البيولوجيا

يري في تركيب الكائنات الحية خاصة الخلية الأولي منها ما لا يراه الآخرون ... وقس على ذلك سائر العلوم الطبيعية .

إذن الذي نعنيه : إنما هو توظيف العلوم توظيفاً إسلامياً ، وتوجيهها الوجهة الإيمانية بالإضافة إلي وظيفتها الطبيعية في الحياة .

ولنضرب على ذلك مثالين :

المثال الأول : ظاهري في مجري الحياة العادية . وذلك عندما يكتب الطبيب المؤمن وصفة العلاج للمريض فإنه يقول : هذه إمكاناتنا ولنأخذ بالأسباب ولكن الشفاء من عند الله .

هذه المقولة تعكس أمرين :-

١ – حقيقة إيمانية تؤكد الحقائق الكونية وهي أن الله تعالي سبب الأسباب والمسببات ، وأن الأسباب لا تفعل بذاتها بعيداً عن قدرة الله تعالي .

٢ – تؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً وإيجابياً في حال المريض النفسية مما يساعد على الشفاء ، والرضا بقضاء الله .

المثال الثاني : عالم الطبيعة في مختبره يري ما لا يراه الآخرون فإذا كان مؤمناً أدرك بحق مظاهر القدرة الإلهية وكيف تتصرف في عناصر الطبيعة وخصائصها على حد سواء ، ومن ثم يدرك تماماً أن الأسباب المادية لا تفعل بذاتها وأن خواص المادة ليست ذاتية فيها ، فهذا ما أكدته الفيزياء الحديثة .

ثم إن هذا العالم ينقل هذه الأفكار إلي تلاميذه فيزيدهم إيماناً إن كانوا مؤمنين ، أو يدفعهم إلي الإيمان إن كانوا غير مؤمنين .

إن هذا الذي نقوله ، قد أكدته تجارب العلماء خاصة أولئك الذين لم يعرفوا الإيمان بالله إلا عن هذا الطريق ، وهم كثيرون والحمد لله .

يبقي بعد ذلك الخطوة الأولي والأساسية في تربية الدارسين على ذلك المنهج القويم.وهذا إنما يكون بدراسة مادة "الثقافة الإسلامية" إجباريا وفي جميع سنوات الدراسة بالكليات العلمية على وجه الخصوص .

وليس مجرد تدريس الثقافة الإسلامية كاف لتحقيق الهدف الذي نريد – وإنما تبرزها ضرورة المنهج وتوصيف المقررات بحيث يتناسب مع طبيعة التخصص في هذه المجالات :

وعلى سبيل المثال : طالب الزراعة ، يركز له المنهج بصفة حول علوم النبات والجيولوجيا مع ضرب الأمثلة التوضيحية لآخر ما انتهي إليه العلم فيها ، وطالب الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا .. وغيرها .. ويركز المنهج حول خواص المادة إسلامياً مع ضرب الأمثلة بالحقائق العلمية التي انتهي إليها العلم في هذه العلوم ، وهكذا .....

في هذه الحال يجد الطالب نفسه يعيش واقعة الدراسي بما يؤكد التكامل والتلاحم بين الثقافة الإسلامية وغيرها من العلوم الطبيعية .

إنني أقول هذا نتيجة خبرة شيقة وممتعه عشتها سنوات غير قليلة في تدريس لأمثال هؤلاء سواء في تدريس الثقافة الإسلامية أو المذاهب الفكرية المعاصرة .

وقد تأكد لدي أن طلاب الكليات العملية يتميزون عن غيرهم من الطلاب سواء في الإقبال على هذه المقررات ، وسواء في سير الدراسة والتجارب والتفاعل الملموس ، وسواء في نتائج الامتحان ...

تلك هي ثمار المعرفة بالله تبارك وتعالي بالقدر الذي نراه في هذا المجال ، وحسبما يسمح به المقام ، وبالله التوفيق ...

الكلمة الأخيرة

هذه هي كلمتنا في هذا البحث المتواضع بعد رحلة شيقة اقتضتها منهجية البحث : حيث انطلق من باطن الإنسان ودوافعه الذاتية التى تدفعه دفعاً نحو البحث عن المعرفة العليا ، والحقيقة الأزلية الخالدة ، كما تحيط به دوافع خارجية لا يستطيع أن يغض الطرف عنها .

ومن هنا انطلق بفطرته وعقله وبصيرته يشق طريقه هنا وهناك بحثاً عن الحقيقة حتى تمكن من الوصول إليها عبر رحلة شاقة مضنية . وتبقي النتيجة آنئذ من حيث المبدأ لا بالجملة والتفصيل . وإن هو حاول اقتحام التفصيلات هوي وضل ، فلا أحد في الوجود يستطيع أن يعرفنا بالله ذاته وصفاته غير الله تعالي بنفسه عن طريق الوحي المعصوم ، بمقتضى حكمته ورحمته ، حتى يمكن الإنسان من أداء رسالته والقيام بمسئولياته ، فيكون بحق أهلاً للتكليف والمسئولية والجزاء .

وقد حاول البحث أن يستنبط الضوابط الكفيلة بضبط تلك المعرفة لأنها تتعلق بالعقائد وهي لا تبني إلا على يقين .

وبعد هذا حاول أن يتعرف على الخصائص المميزة لها فكان له ما أراد بفضل الله تعالي ، وما دمنا نتكلم عن المعرفة في التصور الإسلامي ، فإنه يصبح من الطبيعي أن تكون رحلتنا هذه على ضوء القرآن الكريم كتاب الله السماوي الوحيد الذي صحت نسبته الآن على وجه الأرض .

وأخيراً يتوقف البحث عند الحصاد فيجني ثماره ونتائجه التى هي لازمة له على التحقيق .

ولما كان الأمر يتعلق بالمعرفة من ثم كان التركيز على الجوانب المعرفية المستفادة من المعرفة بالله تعالي خاصة .

وكان وقفة خاصة عندما نسمه " أسلمة العلوم والمعارف "

كيف تكون العلوم الطبيعية خاصة إسلامية ، فتوظف إسلامياً بالإضافة إلى أهدافها الطبيعية ؟

كيف توظف تلك العلوم إسلامياً مع أنها لا وطن لها ولا جنس ولا دين ؟

هذا ما يجيب عليه البحث ..... وبالله التوفيق ،،،